أبو القاسم سعد الله *

التبادل الثقافي بين مكة والمغرب الإسلامي

(الصفحات ٧- ٢٦)

ملخّص

كان بين المغرب الإسلامي ومكة تبادل ثقافي عريق يرجع إلى الفتح الإسلامي ولكن في أشكال مختلفة، روحية ومادية. وبتقادم العهود أصبحت الرحلات التي دونها المثقفون المغاربة عبارة عن معالم تاريخية عن هذا التبادل،لأن الحجاج المثقفين كانوا يتفاعلون مع معطيات الثقافة الإسلامية أخذًا وعطاءًا. ومن أصحاب الرحلات المغاربية أبو القاسم العياشي الذي،دوّن نشاطه العلمي وملاحظاته الاجتماعية برؤية نقدية وتحليلية في كتابه *ماء الموائد*. ومن تلك الملاحظات ما يتعلق بالمذاهب وبالعادات السيئة لدى بعض الصوفية وعن المزارات في مكة وما جاورها كالطائف وجدّة.

التبادل الثقافي بين مكة والمغرب الإسلامي: العياشي نموذجًا

عندما يريد الغربيون التعبيرعن موقع كثيرالزحام تجتمع فيه مختلف الأجناس والأعراق والألوان البشرية فإنهم يشبهونه بـ(مكة)، أي أنه في نظرهم أصبح سُرّة العالم ومقصد الناس. وهذا ينطبق تمامًا على موقع مكة المكرمة من العالم بفضل فريضة الحج منذ أقدم العصور. وما بلاد المغرب إلا جزءًا من هذا العالم.

---

* - أستاذ جامعي وباحث جزائري.

غيرأن أوّل إشعاع انطلق من مكة المكرمة نحو بلاد المغرب وليس العكس،هو الإسلام نفسه.فقد كانت بلاد المغرب تعيش في جاهلية عمياء حجبت عنها نور الحرية ونورالعلم ونورالإيمان. كانت المنطقة في القرن السابع الميلادي تحت حكم بيزنطي جائرتميزبحرمان أهلها البربرمن ممارسة حقوقهم السياسية ومن التمتع بخيرات بلادهم ومن التطلع إلى استعمال طاقاتهم العقلية لتصحيح عقيدتهم والاستفادة من المعارف الإنسانية.فكانت بلاد المغرب في العهد البيزنطي تعيش في فراغ روحي وفكري لا يملؤه إلامقاومة أهلها أو عزلتهم في الجبال بعيدًا عن الأنظار. لذلك كانت بلاد المغرب مهيأة للبدء في التبادل المعرفي مع مكة المكرمة، بعد أن أطلت منها طلائع الفتح الداعية إلى الله على بصيرة.

إن طبيعة «التبادل» تقتضي أن يكون هناك طرفان يتبادلان التجارب والخبرات في تقدم المعارف والتكنولوجيا والمهارات الاقتصادية والثقافية، وما إلى ذلك. ولكن طبيعة موضوعنا تبدو ذات شق واحد، على الأقل في المرحلة المبكرة. فالإشعاع الديني والعطاء الحضاري كان في أغلب الأحيان يأتي من مكة إلى بلاد المغرب، ولم يكن لهذه البلاد في المرحلة المبكرة ما تتبادله مع مكة سوى النزراليسير، كالهدايا وريع الأوقاف والتحف والبضائع وغيرها من الأشياء المادية.أمّا الذخائرالروحية والأدبية والعلمية فمبادلة بلاد المغرب فيها مع مكة كانت ضئيلة في أوّل الأمر. وسنلاحظ أن الرحلات الحجازية المغاربية كثيرة الحديث عن هذه الذخائرفي مكة وليس العكس. ولذلك فإن هذه المعارف والتجارب هي التي تجعل الحجاج المغاربة يظهرون نخبة متميزة في مجتمعهم بعد الرجوع من الحج سالمين غانمين علمًا ودينًا حتى أن بعضهم كان يميزنفسه عن الآخرين بألقاب مخصوصة يترضيها وأثواب يرتديها وسلوك يعرف به بين الناس.

كانت رحلة الحج عند المغاربة فرصة لأداء الفريضة لأن مكة هي مهبط الوحي

ومأوى أفئدة المسلمين حيثما كانوا،وكان المغاربة، مثل كل المسلمين يتلون في بيوتهم ومساجدهم الآيات الحاثة على أداء الركن الخامس من أركان الإسلام الذي أحيط بشروط لم تعرفها الأركان الأخرى، منها القدرة البدنية والمادية. فكان أداء الفريضة على الوجه الأكمل يتطلب استعدادًا لا يتوفر لكل الناس في كل الأوقات. فبعد المسافة وأخطار الطريق تجعل الحاج المغاربي لا يسافر سفرًا عاديًا، بل سفرًا في الحقيقة وداعيًا. لذلك كانت أوبته من رحلته كأنها عودة غير متوقعة. فيكون الاستقبال أيضًا استثنائيًا، ويكون تسجيل الرحلة أمرًا مرغوبًا فيه دينيًا واجتماعيًا وعلميًا. ولعل مشقة السفر هي التي جعلت مشاركة المرأة في رحلة الحج نادرة عند المغاربة.

من الواضح أننا في حديثنا عن التبادل الثقافي إنما نتناول تجربة الحج عند المثقفين (العلماء) أو الفقهاء وليس عامة الناس. وقد يكون من بين هؤلاء العلماء والفقهاء موظفون سامون في الدولة، أو طلاب علم.ولذلك كان الحاج الفقيه أو العالم معنيًا، بعد أداء الفريضة، بأخذ العلم على شيوخ مكة والمدينة وتسجيل مشاهداته وانطباعاته ومقارنة ذلك بما يعرفه في بلاده أو البلدان الأخرى التي مر بها،سياسيًا وأمنيًا وعلميًا وعمرانيًا. وليس كل الذين قصدوا مكة من الفقهاء والعلماء على درجة واحدة من الثقافة والاستيعاب والاهتمام. فابن بطوطة كان عندما بدأ رحلته، يافعًا لم ينل من العلم إلا حظًا يسيرًا. ومع ذلك كانت له ثقافة فقهية جعلته مرموقًا بين الحجاج المغاربة حتى ولوه القضاء، ربما لأنه لم يكن من بينهم من هو أفضل منه علمًا.

وكان أبو سالم العياشي فقيها زاهدًا وطالب علم.فكان في مكة يبحث عن الشيوخ ويستجيزهم،ويطلب الكتب لينسخها،ويربط العلاقات مع علماء الحرمين الشريفين، وكذلك كان الحسين الورثيلاتي الذي حجّ، مثل العياشي، عدة مرات، وقد خرج من بيئة شاع فيها الزهد ونمت فيها الطرق الصوفية.فكان أثناء حجه يعظ الناس والحكام على السواء، معتبرًا ذلك قربة إلى الله. كما عقد

صلات مع رجال العلم ولا سيما أهل التصوف منهم.أما أحمد بن عمار(ت. بعد ١٢٠٥هـ) فقد كان أديبًا وشاعرًا وفقيهًا عميق الثقافة الدينية، فأراد أن تكون رحلته موسوعة أدبية ودينية تنبض بمشاعره الجياشة إلى الكعبة الشريفة و إلى منزل الوحي والحرم النبوي. وكان كل من أبي القاسم الزياني (ت. ١٢٤٩هـ) ومحمد السنوسي (ت. ١٣١٨هـ) موظفين في بلديهما، الأوّل في مخزن السلطان بفاس، والثاني في حكومة البايات في تونس. وكانت لكليهما ثقافة سياسية واسعة إلى جانب ثقافتهما الدينية.و إذا كانت روح الجغرافيا والسياسة قد غلبت على الزياني فإن روح السياحة والإصلاح الاجتماعي قد غلبا على السنوسي. فكانت آراؤهما في مجتمع مكة تعكس اهتمامهما ومستواهما الفكري.

وهناك تباين بين رحلة وأخرى من حيث أهمية المعلومات المنقولة أو المتبادلة التي تتوفرفيها. وهذه المعلومات تزداد قيمتها بقيمة الملاحظات التي يبديها صاحب الرحلة. ثم إن الملاحظات نفسها لا تكون ذات قيمة إلا إذا كان صاحبها عميق الثقافة دقيق الحكم. فما يلفت النظرعند حاج فقيه قد لا يعني شيئًا عند حاج سياسي أو أديب، وهكذا.ونحن نفهم ذلك من رأي ابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ) الذي عقد فصلًا في (المقدمة) عن الرحلة بصفة عامة.فقد لاحظ أن أفضلها هي تلك التي تجمع بين تلاقح الأفكاروتقادح الآراء، ولا تكتفي بجمع المعلومات وتدوين المشاهدات. وركزابن خلدون على الرحلة العلمية (طلب العلم) فقال: «والسبب في ذلك أن البشريأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل، تارةً علمًا وتعليمًا و إلقاءً، وتارةً محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها». وهذا ينطبق في موضوعنا على الأخذ عن شيوخ مكة سواءً أكانوا من المقيمين أو من الوافدين.

أشرنا إلى أن جاذبية مكة الدينية للمغاربة بدأت منذ الفتح الإسلامي.فقد اعتنق

هؤلاء الإسلام ودخلوا جيوش الفتح، وبادر علماؤهم إلى أداء فريضة الحج وتحصيل الشريعة والأحكام من مصدرها. فكانت تحصل لهم في مكة أحوال من التأثر، سواء بالحضور الشخصي إلى الحرم والكعبة وأداء المناسك والدخول في روحانية غامرة تفرضها رهبة المكان والذكريات والتعاليم، أو بلقائهم أفواجًا من المسلمين جاؤوا من كل حدب وصوب واختلاطهم بهم والتبادل الثقافي معهم. فالحاج المغاربي كان يتعلم بعد أداء الحج، كثيرًا من المعارف والعادات والتقاليد من إخوانه في الدين، فيأخذ علومًا ويتعلم لغات ويتمذهب بمذاهب، ويتبادل كتبًا وإجازات. وكان ذلك منذ وقت مبكر في تاريخ العلاقات بين مكة وبلاد المغرب الإسلامي، أي قبل الشروع في تسجيل الرحلات الدينية التي سبقت، بدون شك، رحلات المشاهدة والسياحة. وتشير الأحداث التاريخية إلى أن لقاء المغاربة بزعماء الحركات الإسلامية المعارضة بدأ من مكة (مثلًا: دعاة الفاطميين).

وقد مرت الرحلات المغاربية بعهدين، الأول من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري، حين فتح ابن رشيد السبتي هذه الطريق، ثم سار آخرون على منواله ومنهم ابن بطوطة. ويعزو بعض الباحثين قلة الرحلات المغاربية خلال القرنين التاسع والعاشر إلى انشغال المغاربة بالفتن الداخلية والغزو الخارجي. وربما كان انعدام الأمن وراء ذلك أيضًا، لأن الغربيين أصيبوا بطعنة كبيرة بعد استيلاء المسلمين على القسطنطينية (سنة ١٤٥٣هـ)، فأصبح البحر الأبيض غير آمن للسفر بالنسبة للمسلمين، ثم إن أخطار الطرق البرية بعد تحول التجارة من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي والأطلسي، جعلت طريق الحج غير مأمونة العواقب. وذلك يعني توقف التبادل الثقافي بين مكة وبلاد المغرب مما أثر سلبًا على المستوى الفكري لدى الجانبين. ومهما كان الأمر فإن القرون التالية (١١، ١٢، ١٣) قد عرفت انطلاقة كبيرة في تدوين الرحلات المغاربية الحجازية.

وشارك في هذه الانطلاقة مثقفو المغرب (المغرب الأقصى) بالخصوص، ويأتي بعدهم الجزائريون ثم التونسيون بدرجات متفاوتة. ولعل أبرز هؤلاء المثقفين

العياشي (القرن١١) الذي حج عدة مرات، ثم الغنامي، والإسحاقي، والناصري الدرعي (ت١٢٣٩هـ)، والزياني. (وأربعتهم حجوا في القرن ١٢هـ) أكثر من مرة كذلك. وكانت معظم الرحلات الجزائرية قد دونت في القرن الثاني عشر والثالث عشر(ابن مسايب، والورثيلاني، ابن عمار، أبو راس الناصري..).ومن تونس هناك السنوسي (القرن ١٣) والجودي القيرواني (القرن ١٤). وأما من موريتانيا فهناك ابن طويرالجنة (القرن ١٣). وقد حج عدد من المثقفين الجزائريين،مثل عبدالكريم الفكون والمقري. (القرن١١) وابن العنابي، والأمير عبدالقادر. (كلاهما في القرن) ولكننا لا نجد لهم رحلات مكتوبة. وفي معظم هذه الرحلات كان تأثير مكة على بلاد المغرب أكثر من تأثير بلاد المغرب على مكة.

ومع ذلك فيجب أن ننوه بما كان يقدمه الحجاج المغاربة لمكة في نطاق التبادل الثقافي ولو كان قليلًا. فقد كانت كتبهم ترحل معهم إلى مكة أو يحملها حجاج آخرون في غالب الأحيان أو مجاورون. وقد ذكر العياشي أنه وجد نسخة من رحلة ابن رشيد السبتي في مكة وأطال في وصفها كما سنرى. وكان العلماء والفقهاء من الحجاج يحملون معهم بعض مؤلفاتهم ورسائلهم فيهدون منها إلى علماء مكة والوافدين عليها من علماء المسلمين، كما أن المجاورين والمهاجرين كانوا يقومون بالتأليف والتدريس في الحرم والمدارس المكية، ومن ثمة كانوا يسهمون في الحياة الثقافية في عاصمة المسلمين. ومن أبرز العلماء الذين جاوروا وقاموا بالتدريس والتأليف أبو مهدي عيسى الثعالبي الجزائري الذي خصّه العياشي بحديث طويل وروي أسانيده المسماة (كنز الرواة). وكان العياشي يسمي الثعالبي «شيخنا». وكانت للثعالبي مكتبة في الحرم المكي أتلفها السيل الذي داهم الحرم.

كما يحمل الحجاج المغاربة تجاربهم في الحياة إلى مكة فقد كانوا يلاحظون عادات وتقاليد أهل مكة من جهة والحجاج الوافدين عليها من جهة أخرى

فيجدون بعضها على الأقل غير منسجمة مع ما اعتادوا عليه في بلادهم، فينتقدونها على أساس ديني أو أخلاقي، أو باعتبارها ظواهر اجتماعية ودينية أقرب إلى البدع منها إلى الدين الصحيح. وهم كما نعرف مالكية المذهب مما يجعلهم ربما أكثر محافظة من غيرهم من المسائل الشرعية. فهذا الورثيلاني يذكر أنه دخل على شريف مكة وطلب منه إعادة المنهوب من ركب الحج الذي كان فيه فاستجاب الشريف إلى طلبه. وأبدى السنوسي ملاحظات دقيقة على الحياة العامة ومنها مناقشته لآراء من عمل بأخبار البرق (التلغراف) وهي أخبار حررها غير المسلمين كما رد على انتقاد المطوف له حول وضع لباس الإحرام على الكتف، ولكن بطريقة لبقة.

ومن جهة أخرى، انتقد التجيبي تعدد الأئمة في الحرم المكي ووجود إمام لكل مذهب من المذاهب الأربعة، ومصلى خاص بكل أهل مذهب. وفي مكة التقى أبو رأس الناصري ببعض العلماء الوهابيين ـ دون أن يسمي منهم أحدًا ـ، وتناظر معهم وانتهى إلى أنهم في نظره، خارجون عن المذاهب الأربعة في الفروع وانتقد الزياني دعوة الأمير سعود الكبير وهاجم القصيدة المعروفة بالقصيدة المغربية جوابًا على الرسالة السعودية....

ولاحظ العياشي الفرق في المستوى الاجتماعي بين أهل مكة وأهل المدينة، فكانت مظاهر التقشف بادية على أهل مكة ومظاهر الرفاهية تلوح على أهل المدينة. وتدخل الأمير عبد القادر في مسألة شرط الخدود عند أهل مكة حين تناقش في ذلك مع الشيخ الأديب أحم الخضراوي الذي استحسن الشرط بقوله:

رأيت لها شرطًا على الخد قد حوى جمالًا وقد زاد الملاحة بالقـــرط

ولكن الأمير عبد القادر استقبح هذه العادة في البيض وإن كان قبلها في السود، قائلًا:

أقوال لقـوم لا تفيـد نصيحتـي لديهـــم ولو أبديت كل الأدلـة

ألا فـــاتركوا ورد الخدود وشأنـه فتخديدكم في الخد أقبح فعلة

وتأثرالتجيبي نفسه بأصوات المجودين للقرآن الكريم في الحرم مما حرك وجدانه وهزمشاعره، ولاحظ أن هؤلاء القراء من المصريين المشهورين بحسن الصوت وتلاوة القرآن بالتلحين، وقال إن الجمادات كادت تخشع لسماعهم. وكما تحدث التجيبي عن المدرسة المنصورية القريبة من المسجد الحرام تحدث السنوسي عن المدرسة الخندريسية الواقعة بسوق الليل والتي كان من أبرزعلمائها العالم الهندي رحمة الله.

ومن أهم مظاهرالتبادل التي أسهم بها المغاربة التعريف بعلماء مكة والوافدين عليها. فهم يعمدون إلى ذكرالشيوخ الذين أخذوا عنهم أوالتقوا بهم وذكر أساليبهم والكتب التي درسها أولئك الشيوخ، وهو ما يطلقون عليه اسم البرنامج. كما يذكرون مؤلفات ورسائل هؤلاء الشيوخ، ونصوص إجازاتهم لهم. ومن الجانب الآخرنجد بعض علماء المغرب يمنحون الإجازات الى العلماء المكيين أو النازلين بمكة من علماء المسلمين. ومن ذلك قيام علماء المغرب بشرح متون أو قصائد أو صلوات (أدعية) لبعض العلماء والمتصوفة الذين تعرفوا عليهم بمكة. ولعل أهم ما نقل الحجاج المغاربة إلى مكة في الأزمنة المتأخرة هو الطرق الصوفية، فقد كان المغرب الأقصى بالخصوص معملًا لصناعة هذه الطرق، إذا صح التعبير، ومنها الشاذلية والزروقية والناصرية. وكانوا يجدون أيضًا تربة خصبة في مكة عندئذ لاستعداد الناس لتقبل هذا النوع من التنظيمات الدينية الخاصة نظرًا للظروف السياسية والاجتماعية المتشابهة التي كانت عليها الأمة الإسلامية، مشرقًا ومغربًا.

حمل المغاربة معهم إلى مكة أيضًا أخبارهم وأخبارنظامهم السياسي والمعاشي، وعلاقاتهم بجيرانهم من الإسبان والبرتغال. وكان لهذا الحدث أهمية كبيرة بعد تحول الطرق التجارية وكساد أسواق المشرق الإسلامي واستيلاء الأوروبيين على الهند وما جاورها. ولا شك أنه وقع تلاقح في الأفكاروتعارف بين الأقطار، ولا سيما

بعد سقوط غرناطة ومصير أهلها الذين انتشروا في سواحل بلاد المغرب أو بقوا في الأندلس تحت الاضطهاد الإسباني، والحروب التي خاضوها دفاعًا عن النفس، واختلاف أقوال الفقهاء في وجوب هجرتهم من عدمها، وما آل إليه أمر الحضارة العربية الإسلامية بعد سقو غرناطة.

ولا شك أن أبرز المتكلمين في هذا المجال هو أحمد المقّري صاحب كتاب *نفح الطيب* الذي حج عدة مرات. ورغم أن ابن خلدون لم يتحدث في تاريخه طويلًا عن رحلته الى مكة فإننا نتوقع أن يكون من بين ناقلي المعارف والتجارب المغاربية إلى بعض حجاج بيت الله الحرام لأنه كان قد خبر النظم السياسية والإدارية والمعاشية في بلاد المغرب والأندلس قبل ذهابه إلى الحج. وقد جاور الأمير عبدالقادر بالحرم المكي وأطال الاعتكاف والتقى في أغلب الظن بعدد كبير من العلماء والأعيان وتحدث إليهم عن حروبه ومقاومته للفرنسيين طيلة سبعة عشر عامًا. كما انتقد حجاج آخرون وجهة نظر الفرنسيين الذين استصدروا فتوى شرعية من علماء المذاهب الأربعة في الحرم المكي تحرم الجهاد على المسلمين الجزائريين ضد الفرنسيين لأنه من باب إلقاء النفس إلى التهلكة المنهي عنه.

وهكذا ترى أن الصلة بين عواصم المغرب الإسلامي ومكة المكرمة لا تكاد تنقطع وأن وسيلة ذلك هم العلماء والمتعلمون والأعيان الذين كانوا يحملون أثناء موسم الحج إنتاجهم الأدبي والديني وتجاربهم السياسية والاجتماعية وعلاقاتهم بجيرانهم من الأروبيين، ثم يعودون من مكة محملين بمثل ذلك إلى مواطنيهم المتعطشين لأخبار الإسلام والمسلمين وحياة أهل الشرق من علماء وعامة وحكام. وتلك هي الحكمة من الحج أليس هو أكبر مؤتمر سنوي إسلامي بل وعالمي؟

ومما يشير إلى أهمية مكة عند أهل المغرب الإسلامي تخصيصهم أوقافًا تسمى أوقاف الحرمين الشريفين. ففي كل مدينة مغاربية كان يوجد صندوق ونظارة خاصة لأوقاف الحرمين، نظرًا لحاجة أهل مكة ومؤسساتها وحجاجها إلى هذه المساعدات الخيرية. وفي كل سنة كانت السلطات تجمع ريع الأوقاف في صرة

خاصة يحملها أميرركب الحج إلى مكة. وكانت هذه الوسيلة تمثل مساهمة اقتصادية واجتماعية من مسلمي بلاد المغرب للتخفيف عن أهل مكة وفقرائها،وهي في الواقع مساهمة تعم الجميع، بمن فيهم شيوخ العلم والطلبة والغرباء ودورالكتب والمدارس والمساجد. فالعلاقة بين هذه الأوقاف ونشرالعلم علاقة وطيدة، وهي تقليد قديم عرفته الثقافة الإسلامية عبرالعصور.وقد كان الأغنياء والتجاروالأمراء ورؤساء العشائروالنساء يشتركون في دفع نصيبهم الخيري لنظارة أوقاف الحرمين.

وفي هذا النطاق يجب أن ننوه بأن الحجاج المغاربة كانوا يسهمون أيضًا في رواج السلع والأسواق في مكة بمشترياتهم الاستهلاكية واقتنائهم للبضائع والهدايا التي يحملونها الى أوطانهم. ومن جهة أخرى كان حكام بلاد المغرب الإسلامي يتبادلون الهدايا والرسائل ونحوها مع شريف مكة في موسم الحج، وتحفل الرحلات والمذكرات والمراسلات الديبلوماسية بأخبارهذا التبادل الذي يظهرفيه أحيانًا التباهي بالثروة والوجاهة في أجلى مظاهرها.

ونود الآن أن نخصص الجزء الباقي من البحث لأحد علماء المغرب الإسلامي وهو أبو سالم العياشي الذي عاش في القرن الحادي عشرالهجري. فقد تناول في رحلته الشيوخ والإجازات وأحوال العلم والعلماء والأفكاروالمذاهب والكتب والمكتبات وسجل انطباعه عن الوافدين والمجاورين أو النزلاء في مكة، وفيهم الهندي،والمغاربي، والشامي، والتركي، والمصري، واليمني. وقد ضمن العياشي كل هذه الأخباروالملاحظات رحلته المسماة *ماء الموائد*.

يعتبرالعياشي نموذجًا حيًا للتبادل الثقافي بين بلاده (المغرب الأقصى) ومكة المكرمة. فقد كان صلة وصل بين مركزين من مراكزالعالم الإسلامي حين نقل أخبارمن التقى بهم من العلماء ووصف حالة الكتب، والطرق الصوفية، والربط، والمدارس، والقراء، والمذاهب وأخبارًا أخرى من المزارات، والعادات

والتقاليد، والشعر، ونحو ذلك، ومن ثمة كانت مكة بالنسبة للعياشي مدرسة تعلم فيها ومنها الكثير، ونحن نعرف أنه أدى فريضة الحج ثلاث مرات في أوقات متباعدة مما أتاح له التعرف على تطور الأحوال والحكام والأجيال وحتى البيئة. ورغم اهتمام العياشي بالمتصوفة فإنه كان ينقل أخبارًا أخرى تتعلق بالتجار والفئات الاجتماعية. وليس من هدفنا هنا التطويل بذكر تفاصيل أخبار الشيوخ الذين درس عليهم أو العلماء الذين التقى بهم لأن ذلك يخرجنا عن الموضوع الذي نحن بصدده، وهو التبادل الثقافي. فلنكتف ببعض اللقطات عنهم.

أ – الشيوخ:

١ – أبو علي حسن بن علي بن يحيى بن عمر العجيمي المكي الحنفي، وهو من تلاميذ صفي الدين القشاشي نزيل المدينة المنورة الذي يسميه العياشي «شيخنا». وقد أذن القشاشي لتلميذه العجيمي «في علم الأسرار والدوائر وأسرار الحروف وخواص الأذكار وفي الدعوات وسائر العلوم التي ما يزال المشايخ يتواصون بإخفائها».

ولكن العياشي أنكر علي العجيمي التفاني في طلب هذه العلوم. وسمع العجيمي رواية الحديث من العياشي واستجازه وأخذ أسانيده وقيد عنه تقاييد. وكانا يلتقيان في مكة يوميًا، وأعار العجيمي للعياشي ما يحتاجه من الكتب ممن «كان بها ضنينًا» لأن العجيمي كان معروفًا في مكة. وبعد مغادرة العياشي مكة بقي العجيمي يراسله. وعندما ألف رسالة في الطرق الصوفية أرسل منها نسخة إلى العياشي في المغرب بطلب منه وأرفقها برسالة ذكر العياشي نصها في رحلته بل إن العجيمي استجاز للعياشي العلماء الوافدين إلى مكة حتى بعد رجوعه إلى بلاده. وتعتبر العلاقة بين العياشي والعجيمي مثالًا لتبادل العلماء ما لديهم من علوم ومعارف.

٢- السيد مصطفى، وقد وصفه العياشي بأنه رجل ضرير من آل البيت وأنه شيخ

مجتهد في العبادات قلما يسبقه أحد إلى الحرم، وقد زاره العياشي عدة مرات، وقال إن للناس في هذا الشيخ عقيدة في الصلاح والبركة.

٣- سيدي أحمد بن باقشيراليمني، وهومن بيوت العلم، وكان عمه عبدالله من كبارعلماء المذهب الشافعي بمكة. وترجع شهرة عبدالله إلى علم الدارية ولكن العياشي لم يلتق به لمرضه. وكان لآل باقشيررغبة قوية في أخذ العلم من الوافدين إلى مكة ومنهم العياشي وأمثاله من المغاربة. وقد سمع أحمد المذكورمن العياشي واستجازه. وكان يبالغ في التودد إليه، وقال العياشي أنه سمع بوفاة الشيخ أحمد بعد رجوعه إلى المغرب سنة ١٠٧٥هـ

٤- سليمان بن شمس الدين الحجار، وقد وصفه العياشي بـ«الولي الصالح» وكان ملازمًا للطواف بالبيت ولا ينقطع عن قراءة القرآن وهو رجل في نظر العياشي: «مجهول عند أهل الأرض معروف عند أهل السماء»، وكان قبل تفرغه للعبادة معلمًا للصبيان.

٥- أبو زيد عبدالرحمن بن أحمد المكناسي، من الوافدين إلى مكة من مكناس وكان يلقب بالزناتي. وقد أطال العياشي في ذكرنسب وحياة هذا الشيخ الذي عرف تقلبات عديدة، وكان صاحب فضل عليه أثناء حجه، وكان المكناسي يقيم بالطائف ولكنه كان يتردد على مكة وأصبح من أهل المال والجاه. وقد بلغ من سطوته أنه لم يقم من مجلسه إلى أحد أولاد شريف الحجازولم يعتذرله. وكان لا يراعي أرباب الدولة، حسب تعبيرالعياشي.

٦- أحمد بن تاج الدين المالكي الأنصاري، الذي تولى القضاء في مكة وراثة عن أبيه، دون إخوته. وهذا القاضي هوالذي كتب للعياشي قصائد (ديوان) والده في المدائح النبوية وقصائد أخرى في مدائح سلطان الحجاز(كذا)، شاكرًا أنعمه وفضله عليه. وقد نقل العياشي كل هذه القصائد في رحلته التي ربما تعتبر مصدرها الوحيد.

٧- أبو مهدي عيسى الثعالبي الجزائري، هاجر من الجزائر بعد ظروف سياسية معقدة وسكن المدينة ثم جاور بمكة، وكانت له مكتبة هامة بالحرم المكي، أخذ عنه العياشي كثيرًا من العلوم ولا سيما علم الحديث وذكرت أسانيده، وكان يسميه «شيخنا». ولا نرى داعيًا لتفصيل أخبارهما هنا و إنما نكتفي بالإحالة على ما جاء عن الثعالبي في رحلة العياشي. وعلى ما كتبناه نحن عنه. ومن أخبار الثعالبي التي رواها العياشي أنه كان ملازمًا لأحمد باقشير اليمني وسمع منه علومًا كثيرة.

٨- علي بن الجمال، الذي كان من فقهاء الشافعية البارزين بمكة، ومدرسًا في الحرم. ورغم أن العياشي قد أدركه في بعض حجاته فإنه لم يتلق به.

٩- عبدالعزيز بن حسن بن عيسى التواتي، التقى به العياشي في الطائف وقال عنه إنه شيخ القراء بمسجدها الكبير ووصفه بأنه الشيخ الذي «لا يشاركه في تحقيق فن القراءة بأرض الحجاز غيره، ولا يجهل عند الخاص والعام من أهل تلك الديار أمره». وكان التواتي هذا من تيجورارن التي عدها العياشي من المغرب، ومتزوجًا من امرأة طائفية، وكان يحج كل عام، وقد أخذ عنه العياشي الحديث المسلسل وأجازه.

١٠- عبد العزيز الزمزمي، من أهل مكة وكان قد ناهز الثمانين سنة عندما حج العياشي للمرة ألوى عام ١٠٦٥ هـ فلم يلقه، أما في الحجة الأخيرة فوجده قد مات، ولكنه لقي ابنه عبدالسلام، وتنسب إلى عائلة الزمزمي كرامات سمع عنها العياشي بمكة.

وهناك غير هؤلاء من الرجال الذين لقيهم العياشي ونقل علومهم وأخبارهم إلى المغرب، كما نقل بعض كتبهم و إجازاتهم، وظل يتراسل مع بعضهم بعد رجوعه.

ب – المكتبات:

وجد العياشي مكتبات نقل أخبارها في رحلته، بل شارك بنفسه في حركة

التأليف والإفادة وهو بمكة. يقول عن بعض الكتب التي رآها في مكة: إن منها رحلة ابن رشيد السبتي التي رأى منها عدة أجزاء عند شيخه الثعالبي، وكانت النسخة في وقف المغاربة المعروف برباط الموفق. ويبدو أن هذا الرباط كان يحتوي على مكتبة هامة. ولاحظ العياشي أن على النسخة خط ابن رشيد نفسه مما يدل على أنها النسخة الأصلية، كما أن عليها خط تلميذه عبدالمهيمن الحضرمي الذي كانت في ملكه. وقد وصف العياشي رحلة ابن رشيد وفوائدها العلمية وصفًا مطولًا بلغ عدة صفحات. ولا نرى داعيًا لذكر ذلك هنا.

كما ذكر العياشي مؤلفًا آخر في مدح الرسول (ص) عنوانه *منتهى السؤل من مدح الرسول* وهو في مجموع من القالب الكبير، يؤرخ للسيرة النبوية، ومؤلفه هو محمد بن أبي القاسم بن أحمد بن عبدالرحمن الأنصاري، وقد رأى منه العياشي المجلس التاسع، وفي آخره تاريخ إكماله وهو سنة ٦٧٣هـ.

ومن جملة ما احتواه المجموع المذكور، المعلم الرابع من كتاب *الدرة السنية في المعالم السنية*، وهو أيضًا في السيرة النبوية، ثم كتاب (الأعلام المحمدية) للقاضي أبي عبدالله بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي، ومن جملة ما في المجموع المذكور كتاب *اللآلي المجموعة* وفي وصف نعل الرسول (ص)، الذي جمعه عبدالله بن محمد بن هارون الطائي القرطبي، وبهذه المناسبة لاحظ العياشي أن أحمد المقري صاحب كتاب *فتح المتعال في مدح النعال* لم يطلع على كتاب الآلي.

إضافة إلى ذلك اطلع العياشي على كتاب *تاريخ الإسلام* للحافظ الذهبي، في عشرة أجزاء ضخام، و*طبقات صوفية* للمناوي. وقد نوّه العياشي بالكتاب الأخير لأن صاحبه ترجم فيه لأحمد زروق البرنوسي وأبي الحسن الشاذلي وكلاهما من متصوفة المغرب. ومنها كتاب *القوانين* لابن أبي الربيع في النحو. ولا شك أن العياشي قد نقل إلى المغرب حصادًا هامًا من مكتبات مكة وعلمائها.

وقد وصف العياشي بأسف ما حدث لمكتبة شيخه الثعالبي جراء السيل الجارف الذي ألم بمكة في حجته الأخيرة. فقال إن مما أتلفه السيل خزانة كتب بالمسجد الحرام تبلغ نفائسها ثمانين سفرًا. وكان الشيخ الثعالبي يأوي إليها قبل زواجه. فلما سافر الثعالبي إلى المدينة ترك عليها صاحبًا لها من إفريقية (تونس؟). ولماذ حلّ السيل غفل هذا الرجل عن إبعاد الكتب ظنًا منه أن السيل لن يبلغ ما بلغ من العنف. ولكن الماء أتى على الكتب، فأمر الثعالبي بحفر حفرة ودفنها فيها متأسفًا على ضياعها.

ج – الرباطات:

من الرباطات التي ذكرها العياشي رباط الموفق أو رباط المغاربة الواقع عند باب إبراهيم، ورباط السلطان قايتباي. والرباط الأول هو الذي نزل العياشي قريبًا منه ولم ينزل فيه رغم أنه باسم المغاربة. ثم نزل بدار تقع وراء سوق الشامي قرب دار الندوة. وأما رباط قايتباي المشرف على الصفا، فقد قال عنه إنه «مليح واسع فيه بيوت كثيرة جيدةُ، جامعة لمرافق السكني، في كل بيت منه خابية للماء، ومكان للخلاء والوضوء». ولكن لماذا لم ينزل في هذا الرباط وظل يتردد بين بيت مؤقت أعطاه له شيخه الثعالبي، ومن بيت آخر أعطاه له الشيخ محمد الغدامسي. ويبدو أن العياشي لم يرتح للبيت الأخير لأنه قال عنه: «ماء ولا كصداء.

د – التصوف:

كان العياشي متأثرًا بأحوال العصر، كما قلنا، بالطرق الصوفية وأهلها. فكان يصف أذواق بعض القوم وسلوكهم ويروي أخبارهم الخارقة للعادة، وكراماتهم، وما يردده الناس عنهم، وينقل من مؤلفاتهم. ولا نريد التوسع في ذلك

الآن، ولكننا نشير إلى أنه ربما حمل من تلك الأخبار الشيء الكثير إلى المغرب لأن بعض أصحاب الطرق كانوا يأتون إلى مكة وينشرون أفكارهم بين الحجاج. ومن جملتهم الشيخ العجيمي الذي سبق ذكره، فقد ألف رسالة في الطرق الصوفية يقول العياشي عن صاحبها «إنه استوعب فيه طرق أئمتنا الصوفية الموجودة في هذه الأزمنة». وقد مدح العياشي هذه الرسالة وألح على العجيمي أن يرسل إليه نسخة منها واستجازه فيها، فبعث إليه العجيمي النسخة ومعها كتاب أورد العياشي نصه في رحلته. وقد اشتملت (الرسالة) على أربعين طريقة، ذكر العياشي أسماءها كلها في رحلته، فمنها المشهور كالشاذلية والخلوتية والسهروردية والوفائية والقادرية والرفاعية والنقشبندية، ومنها غير المشهور كالعشقية والسهلية والمشارعية والخفيفية. ونعتقد أن بعض المغاربة المولعين بالطرق الصوفية قد وجدوا فيما نقله العياشي معلومات هامة ومداخل لطرق غير معروفة لديهم. ومما يُلفت النظر في مجال التبادل طلب العياشي من العجيمي التأكيد على الشيخ الملا إبراهيم، نزيل المدينة، أن يشرح *القواعد الكبرى* التي أرسلها العياشي إليه. والملاحظ هنا أن المراسلات قد جرت بعد رجوع العياشي إلى بلاده.

هـ - المذاهب:

تحدث العياشي كذلك عن نازلة (مسألة) فقهية حدثت بينما كان في مكة، فألف فيها (رسالة) أبدى فيها رأيه في ترجيح رأي الإمام الحنفي على رأي غيره. وقد سمى العياشي رسالته (رفع الحجر عند الاقتداء بإمام الحجر). وخلاصة هذه النازلة أن إمام الحنفية صلى بالناس في الحجر، وصلى من ورائه أغلب الناس على عاداتهم. فتحدث المالكية عن صحة هذه الصلاة. ويبدو أن هذا الحديث قد

اتسع مما دعا العياشي، وهو مالكي إلى ترجيح رأي الإمام الحنفي. وقد جاء في رسالته،بعد الديباجة: «أما بعد، فهذه رسالة غريبة الوضع،عظيمة النفع،يحتاج إليها أهل مكة البررة الكرام، ويرغب عنها من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام،سميتها ، رفع الحجر...» . فقد مال العياشي فيها إلى جواز الصلاة المذكورة وفضّل الاقتداء بإمام الحنفية. وقد أورد نص هذه الرسالة في الرحلة.

بالنسبة لأداء العمرة على الغير خالف العياشي أيضًا المذاهب القائلة بعدم تكرار العمرة وأدائها على الآخرين كالوالدين والإخوان والأصحاب والمشائخ. وقد أدى العياشي مناسك العمرة عدة مرات، ونواها على الوالدين والأقربين، مخالفًا في ذلك من يقول بكراهية تكرارها في السنة الواحدة، متعللًا بأن ذلك إنما يكره للمقيم، أما المسافر فعليه الاستكثار منها لأنها، كما يقول، من أفعال الخير. وانتقد العياشي أيضًا المبالغة في إنشاء مقامات الأئمة الأربعة، حيث يوجد في كل مكان إمام يصلي بصلاته جماعة من أهل مذهبه، ولهم مسمع، وبذلك تكثر الأصوات وتحدث الجلبة. ولاحظ أيضًا أن أكثر الناس ضجيجًا هم الحنفية. وأن لكل مذهب تاريخًا للختم، فالشافعية يختمون يوم ٢١ رمضان، والمالكية يوم ٢٥ منه، والحنفية يوم ٢٧.ولم يذكر العياشي يومًا لختم الحنابلة. وفي كل ليلة ختم يحتفل أهل كل مذهب بنشر الطيب وتكثير المصابيح والشموع، وفيها يخلع السلطان (الشريف؟) خلعًا على كل إمام مذهب.

ويشير العياشي إلى وجود خطيب واحد يوم عيد الفطر، وقد توجه هو إلى المصلى مبكرًا ولكن الخطيب لم يأت إلا بعد أن طلعت الشمس وبدأت الحرارة، وألقى الخطيب خطبة بليغة في نظره ولكنها طويلة. وعندما جاء لفظ السلطان (العثماني؟) على لسان الخطيب، تقدم منه ممثلو السلطان وخلعوا عليه الخلعة، وهو يخطب،وبعد ذلك مباشرة انصرف الناس عن الخطيب دون انتظار الانتهاء من الخطبة لأن حضور الناس كان لمشاهدة الخلعة، وهي عادة مذمومة في نظر العياشي.

و -مسائل أخرى:

أورد العياشي عددًا هامًا من الإجازات التي حصل عليها من شيوخه، لأن من أهداف الرحلة طلب العلم من مصدره مباشرة، على حد قول ابن خلدون. ومنها الإجازات التي أجازبها هو بعض علماء مكة،وكذلك بعض الرسائل (المكاتيب) التي صدرت منه أو وردت عليه.وهذه أمثلة حية للتبادل الثقافي الذي نحن بصدده. وهناك خبريتعلق بالمغاربة في مكة أورده العياشي بنوع من العطف.فقال إن القراء كانوا يجتمعون أثناء شهررمضان حول المصابيح المتناثرة في صحن المسجد الحرام، على اتساعه، وعند كل مصباح يجلس القراء المغاربة وغيرهم يتلون القرآن الكريم،فإذا كان الاحتفال بالختم يعطى كل واحد من القراء ممن يقرأ عنده الكسوة والدراهم، على قدرالحال والمروءة. وبذلك ينتفع فقراء المغاربة المجاورين بالحرم، لاسيما من كان منهم حسن الصوت.ومن هؤلاء من كان يقرأ في عدة أماكن ويأخذ من كل واحد ما تم الاتفاق عليه. وبذلك تكون قراءة القرآن في رمضان موردًا للزرق للمجاورين المغاربة الذين اشتهروا بحفظ القرآن عن ظهرقلب.

وللعياشي حديث طويل عن المزارات في مكة وما قاربها كالطائف وجدة، وهو الحديث الذي ينتظره ويتشوق إليه مواطنوه في العادة. وله حديث آخرعن عادة كسوة الكعبة ودخول البيت، وما أحدثه السيل الجارف من دمار، ثم ما نتج عن هذا السيل من خصوبة الأرض حتى أن الأسواق ازدهرت والأسعارانخفضت والمياه غزرت وعذبت، وحلا ماء زمزم وارتفع عن مستواه، وأصبحت الأرض ندية وخفت شدة الحرارة، كما تعرض العياشي إلى عادة أهل مكة في الاحتفال بالموالد.

ونختم هذا البحث بالتأكيد على أنه كان بين المغرب الإسلامي ومكة تبادل ثقافي عريق يرجع إلى الفتح الإسلامي ولكن في أشكال مختلفة،روحية ومادية. وبتقادم العهود أصبحت الرحلات التي دونها المثقفون المغاربة عبارة عن معالم

تاريخية عن هذا التبادل، لأن الحجاج المثقفين كانوا يتفاعلون مع معطيات الثقافة الإسلامية أخذًا وعطاءً. وكل ذلك بفضل ركن الحج وأداء مناسكه في عاصمة العالم الإسلامي.

بعض المصادر والمراجع:

١ – ابن عمار، أحمد، *نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب*، نبذة منها حققها ابن شنب، ط. الجزائر، ١٩٠٣.

٢- أبو راس الناصري، محمد، *فتح الإله ومنّته*، تحقيق محمد عبدالكريم، الجزائر، ١٩٨٢؟

٣- ابن عبدالله، عبدالعزيز، *تاريخ الجزئرة العربية* ج ٢. ط. جامعة الرياض، ١٩٧٩م، ص ٣٤٩ – ٣٥٦.

٤- التجيبي، أبو القاسم بن يوسف السبتي، *مستفاد الرحلة والاغتراب*، ط. تونس، ١٩٧٥.

٥- الجودي، محمد التميمي القيرواني، *رحلة حجازية مخلصة في مجلة العرب*، ج ٣ – ٤ سنة ١٦. ج ٩ – ١٠ سنة ١٦. ج ٣ – ٤. سنة ١٧.

٦- الحفناوي، أبو القاسم، *تعريف الخلف برجال السلف*، مجلدان في واحد، ط. بيروت، ١٩٨٢.

٧- الزياني، أبو القاسم بن أحمد، *الترجمانة الكبرى*، تحقيق عبدالكريم الفيلالي، ط. المغرب، ١٩٦٧.

٨- سعد الله، أبو القاسم، *تاريخ الجزائر الثقافي*، ٩ أجزاء، ط. بيروت، ١٩٩٨.

٩- سعد الله، أبو القاسم، *تجارب في الأدب والرحلة*، ط. الجزائر، ١٩٨٣.

١٠- سعد الله، أبو القاسم، *الرحلات الجزائرية الحجازية خلال العهد العثماني*، في كتاب مصادر تاريخ الجزائر العربية، ج ٢، ط. جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٣٣٥ – ٣٤٧.

١١- السنوسي، محمد الرحلة الحجازية، ٣ أجزاء، تحقيق علي الشنوفي،ط. تونس، ١٣٩٨/ ١٩٧٨.

١٢- العياشي، أبو سالم عبدالله بن محمد، *ماء الموائد* (الرحلة العياشية)،ط فاس، ١٣١٦/ ١٨٩٨.

١٣- الفهري،محمد الفاسي، *الرحالة المغاربة وآثارهم*، في مجلة دعوة الحق، سنة ٢، الأعداد ٢، ٣، ٤,

١٤- الكتاني،عبدالحي، *فهرس الفهارس*، في مجلدين، بعناية إحسان عباس، ط. بيروت ,١٩٨٢

١٥- الكتاني، *تفريط كتاب دليل الحج والسياحة*، تأليف أحمد بن محمد الهواري، ط الرباط، ١٣٥٤/ ,١٩٣٥

١٦- المري، عبدالسلام بن سودة، *دليل مؤرخ المغرب الأقصى*، ط.الدارالبيضاء، ط ٢، ,١٩٦٠

١٧- المنوني،محمد، «الجزيرة العربية في الجغرافيات والرحلات المغربية» في كتاب *مصادرتاريخ الجزيرة العربية*،ج ٢، ط جامعة الرياض، ١٣٩٩/ ١٩٧٩،ص ٢٩٩ —,٣٢٦

١٨- الورثيلاني،الحسين، *نزهة الأنظار*، (الرحلة الوريلانية)،تحقيق محمد بن شنب،ط مصورة،بيروت، ١٩٧٤.